تطبيق الإله الخفي للوسيان غولدمان

رأى غولدمان أنه لا بد من وجود أداة موضوعية تحدد القيمة الجمالية للعمل الأدبي ، تسمح بالتمييز بين الأساسي و العرضي في عمل ما ، أداة يمكن بالتالي مراقبة مشروعيتها و استخدامها استنادا إلى مكون تطبيقها يجب أن لا يلغي أبدا أعمالا ناجحة جماليا قد يعدها غير أساسية ، و هذه الأداة هي مفهوم "رؤيا العالم" كما بدت له .و رؤيا العالم من منظوره " ليست معطى تجريبيا مباشرا ، بل على العكس أداة عمل إدراكية ضرورية لفهم التعبيرات المباشرة لفكر الأفراد .و تظهر أهميتها و واقعيتها حتى على المستوى التجريبي ،عندما نتجاوز فكر كاتب واحد و أعماله "[1].

تحدد رؤيا العالم حالة الكتاب حتى أولئك الذين تجمع بين كتاباتهم علاقات فلسفية و فكرية.إن رؤيا العالم هي الوعي الجمعي، و الذي حاول تحديد مفهومه علماء الاجتماع .و هو يربط بين رؤيا العالم و التجانس ، فتحليلهما يحدد مفهوم التجانس .

اعتبر غولدمان أن خطأ الدراسات النفسية هي اعتبارها الفرد كذات مطلقة ، لأنه لا يوجد فعل إنساني واحد يقوم به فرد منعزل ، فهناك بالمقابل النحن "و هي التعبير عن فعل مشترك يقع على موضوع مادي أو اجتماعي " [2] . يمكن للمجموعات أن تتشكل بالنظر إلى المصالح الاقتصادية ، فهذه المصالح ينبغي أن تتوجه نحو تحول شامل للبنية الاجتماعية ، و أن يعبر عن نفسها هكذا على المستوى الإيديولوجي من خلال رؤية شاملة للإنسان المعاصر لمزاياه و أخطائه ، و من خلال مثل أعلى للإنسانية القادمة ، و عما يجب أن تكون عليه العلاقات بين الإنسان و أقرانه و بينه و بين العالم "[3].

---

[1]-لوسيان غولدمان ، الإله الخفي ،ترجمة زبيدة القاضي ،منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب ، دمشق ، سوريا ،2010. ص42.

[22]-المرجع نفسه ،ص44.

[3]-المرجع نفسه ، ص45/44.

بمعنى وجود بعدين متلازمين في العمل الأدبي هما: البعد الفردي والبعد الجماعي يتمثل الأول في خيال المبدع ،أما الثاني فهو المجتمع."و كما أننا في علم النفس لا نستطيع الفصل بين الأنا و الغير كذلك في الفن لا نستطيع الفصل بين البعد الجماعي (الطبقات الاجتماعية) و البعد الفردي داخل العمل الفني"[4].

يمكننا أن نطرح سؤالا هنا ، ما هو الدور الذي يلعبه المجتمع في صياغة العمل الأدبي؟ وهل يمكن أن يجتمع المجتمع كله ليفعل ذلك؟.

لا شك أن غولدمان يقصد العلاقة بين العمل الأدبي والمجتمع ،وهي علاقة تأثير وتأثر "لا شك أن الرؤية الجماعية للعالم التي تعيشها المجموعة بشكل طبيعي ولا مباشر تؤثر في الفرد (الكاتب المبدع) ويعيدها بدوره إلى المجموعة"[5]."

تصبح رؤية العالم عند غولدمان "هي بالتحديد هذا المجموع من التطلعات و المشاعر و الأفكار التي تجمع بين أعضاء المجموعة الواحدة (و غالبا الطبقة الاجتماعية الواحدة) و تعارضها مع المجموعات الأخرى "[6].إذا ما تمكن الفرد من اكتساب الوعي ، و التعبير عنه على المستوى الإدراكي أو التخيلي فهو فيلسوف ، أو كاتب ، و يصبح عمله قريب من التجانس البياني لرؤية العالم من المجموعة التي يعبر عنها .

هنا يختلف المفهوم الجدلي للحياة عن المفاهيم التقليدية لعلم النفس و علم الاجتماع، فالفرد ليس منعزلا عن عالمه المادي، و ليس الوعي الجمعي فوقيا متعارضا مع الأفراد، فالوعي الجمعي يوجد في وعي كل الأفراد، و هو ليس مجموعا لها.لذلك يمكن أن نتحدث عن وعي عائلي ،وعي مهني ، وعي وطني ، وعي الطبقات الاجتماعية بدلا من وعي المجموعة ، لأن الوعي هو " النزعة المشتركة للمشاعر و التطلعات و الأفكار لأعضاء طبقة ما ، نزعة تتطور بالتحديد انطلاقا من وضعية

---

[4]-**جمال شحيد في البنوية التكوينية، ص38.**

[5]- **المرجع السابق ،ص 38.**

[6]-**المرجع نفسه ، ص45.**

اقتصادية و اجتماعية ما تولد نشاطا فاعله مجموعة واقعية أو افتراضية تشكلها الطبقة الاجتماعية " لذا فهو يختلف من شخص لآخر، و يبلغ أقصاه عند أفراد استثنائيين يحسنون أكثر من غيرهم التعبير عنه .فمثلا باسكال و راسين تمكنا من التعبير عن الينسينية أكثر من غيرهم ، فهما أصبحا مقياسا منطقيا للآخرين ." إن كل عمل فني أو أدبي كبير تعبير عن رؤيا العالم " [7]و تسمح رؤيا العالم باستنتاج :

-الأساسي في الأعمال المدروسة .

-دلالة العناصر الجزئية في العمل ككل .

لا ندرس رؤيا العالم فقط بل ينبغي أن نتساءل عن الأسباب الاجتماعية أو الفردية التي جعلت من هذه الرؤية التي هي تصور عام تظهر في هذا العمل، و في هذا المكان، أو في هذه الحقبة بالطريقة هذه ،أو تلك بالتحديد .كما يتوجب علينا استنتاج التناقضات و المفارقات التي تجعل العمل بعيد و غير منسجم لرؤية عالم تناسبه " [8]و يمكن في النقطة الأخيرة العودة إلى السيرة الذاتية للكاتب في علاقتها بالموضوع المدروس .و يمكن ملاحظة هي أن رؤية العالم لها وظائف مختلفة يمكن أن تكون ثورية أو دينية ،محافظة حسب العصور ، إذن يجب أن نقوم بتصنيف الرؤى مثلا هناك الرؤيا التراجيدية التي ستكون الأداة التصويرية التي سنستخدمها في فهم باسكال و راسين .[9]

تصبح رؤيا العالم هي الشكل الموضوعي أو النسق الفكري المعبر عن واقع معين بعيدا عن ذاتية المؤلف . ينطبق هذا الوصف على الرؤية التراجيدية التي استخلصها غولدمان -الرؤية التراجيدية الله- في أعمال كانط و باسكال و راسين ،و قد أشار إلى أن مصطلح التراجيديا وظفه لوكاتش في بداية فكره .سيحدد غولدمان موقع هذه الرؤى من الرؤى التي سبقتها، أي العقلانية و التجريبية، و تلك

---

[7]-**المرجع نفسه ، 47.**

[8]-**المرجع نفسه ،ص47.**

[9]-**المرجع نفسه ،ص51.**

التي تبعتها فتجاوزتها (الفكر الجدلي المثالي هيجل،و المادي الماركسي) و هي كلها تصورات متسلسلة سيبحث عن دلالة الفكر و قيمته الواقعية .يمثل كانط و باسكال تمثيلا للعقلانية التجريبية .

كتب باسكال خواطره ضمن هذا الفكر العقلاني التجريبي الذي جاء نتيجة كفاح فكري طويل ضد المواقف الفلسفية و العلمية التي كانت سائدة في ذلك العصر (الفلسفة الأرسطية و الاكوينية الفلسفة الإيحائية الطبيعية (جاليلو ديكارت).و كانت الثانية تدرس ببطء الأرسطية الإكوينية تعبيرا عن العقل في القرن الثالث عشر . و مع نهاية القرن الخامس عشر و حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يعد الاعتراف بالإقطاع و الكنيسة ، فقد تم إلغاء الاكوينية.و مع القرن السادس عشر و السابع عشر استعادت الحكومة الملكية توازنها و سيطرت البورجوازية اقتصاديا و أصبحت مساوية لطبقة النبلاء التي تحولت من طبقة نبلاء السيف إلى نبلاء القصور ، و أقامت المنهج العقلاني بتنظيم الإنتاج .في عصر باسكال ، و هو القرن الثامن عشر ولت الأرسطية و الأفلاطونية و تطورت الرأسمالية و تم تجريدهما (جاليلو و ديكارت) من أهميتهما العلمية و الفلسفية. و ساهم باسكال في ذلك فلم يعد يهتم بالأرسطية و الأفلاطونية ، و ناقش باسكال الفلسفة التشكيكية و العقلانية ديكارت مع عدم الفصل بين الفيزياء عن الأخلاق و الدين ،و كان ديكارت منافسه ، و لكنهما كانا مفكرين لكل واحد منهما رؤيته .

قدمت العقلانية مفهوم الفرد العقلاني و الفضاء الامحدود لنتكد من خلالها عن الحرية الفردية و العدالة الاجتماعية في القرن السابع عشر ، و ما ميزها هو دور الله الثانوي ، فمهمته هو إعطاء دفعة صغيرة للعالم (ديكارت) ، و بالتالي لم يعد مكان لأخلاق الفرد المنعزل و الكون المنظم بالفضاء غير معرف و دون حدود ،كل يقوم بدور تبادل ، فأصبح البشر و الأشياء أدوات عادية أعراضا للفكر لدى الفرد .كما كانت النتيجة مغادرة الله العالم لأن الإنسان لم يعد بحاجة إلى مساعدة لأنه صانع الحقائق الأبدية ." فإذا بحثنا بعمق في الحياة الاجتماعية و جدنا أن عمل العقلانية كان يتناول

وسطا ما زال مطبوعا بعمق في قيم مازال البشر يشعرون بها ، و يعيشونها على الرغم من كونها غريبة و مناقضة للعقلية الجديدة الناشئة " [10].

و قد كان لغياب الله –الأخلاق عواقب وخيمة .و في هذا التحول ظهر الفكر الينسيني الذي عبر عنه باسكال و راسين ، و كان قد وعى تناقضات المرحلة ، فهو عودة إلى الأخلاق و الدين تسمو بالفرد ، هي موقف تاريخي (العقلانية معادية للدين) تأثر بالنقص الأساسي للمجتمع الإنساني و أكبر نقص هو الإله الخفي " الله خفي بالنسبة إلى أغلب الناس، و لكنه مرئي بالنسبة إل أولئك الذين اختارهم و منحهم رحمته "[11].الإله الخفي فكرة أساسية في الرؤية التراجيدية في أعمال باسكال ، و الإله الخفي عنده حاضر و غائب لا حاضر أحيانا ، و غائب في أحيان أخرى ، بل حاضر دائما و غائب دائما " و هذه هي التراجيديا .إله ديكارت موجود هو حاضر في الروح ، و يمكن أن يبلغه الفرد بأفعاله و فكره .أما إله باسكال و راسين و كانط لا يقدم أية مساعدة خارجية .إنه يفرض و يحكم يعاقب من يتجرأ على الجوهر (العدالة) ، و هو يغفر عندما لا يساء إلى الجوهر إن الخلاصة في الفكر التراجيدي هي " أنه مازال بوسع الإنسان أن يعيش بعد أن وقع عليه بصر الله ".[12]

يتناول غولدمان في الرؤية التراجيدية العالم العلاقة بين العالم و الإنسان و يرى أنها طرحت فلسفيا على صعيدين : التطور التاريخي و الواقع الانطولوجيا .بالنسبة للتطور التاريخي باعتباره تسلسلا في الزمن فقد تمكن الإنسان من تطوير نفسه، و أدواته، و حياته من خلال هذا التسلسل .أما بالنسبة للعالم الانطولوجي فيعني به الواقع الذي يوجد أمامه البشر ، و . كل مكان استوعب

---

[10]-لوسيان غولدمان ،الاله الخفي ،66.

[11]-المرجع نفسه ،ص72.

[12]-المرجع نفسه ،ص76.

الوعي التراجيدي هذين الصعيدين لحل مشكلات العلاقات بين البشر و العالم .فالوعي التراجيدي عبر " عن أزمنة عميقة للعلاقات بين البشر و العالم الاجتماعي و الكوني "[13].

(التراجيديا عالم من الأسئلة المقلقة لا يملك الإنسان الإجابة عنها و التراجيديا هي تعبير اللحظات التي تجد فيها القيمة العليا .و جوهر الإنسانية الكلاسيكية نفسه و وحدة الإنسان و العالم ، تجد نفسها مهددة و نحس بأهميتها بشدة من النادر بلوغها بهذا المعنى تعد أعمال سوفكلويس و شكسبير و راسين و كانط وهوميروس و إسخيلوس و غوته و يجل و ماركس قمما الفن و الفكر الكلاسيكيين).[14]

التراجيدي عالم الحياة بالنسبة إليه وهمي و غامض لذلك أدان أعراض أزمة عميقة في العلاقات بين الناس و العالم ، و ينتمي إلى الفكر التراجيدي :الجدلية الهيجلية ، و المادية الماركسية .و قد أطلق عليها اسم تراجيديا الرفض ، و هي التي عبرت عن أزمة العلاقات بين البشر و العالم الكوني ،أو الاجتماعي " إن فلسفة هيجل و ماركس تقبل و تدمج في مادتها كل المشاكل التي يطرحها الفكر التراجيدي الذي سبقها ، و هما يستعيدان كليا لحسابهما نقده للفلسفتين العقلانية ،و التجريبية و للأخلاق العقائدية، أو العاطفية ، أو النفعية ، و نقده للمجتمع الواقعي مجتمع ....

"إن الله في التراجيديا ، إله حاضر دائما و الغائب دائما، و هكذا فإن وجوده ينقص دون شك من قيمة العالم ، و ينزع كل الواقعية ، لكن غيابه الأساسي أيضا و المستمر أيضا يجعل على العكس من العالم الواقع الوحيد التي يجد الإنسان نفسه أمامه، و الذي يتوجب عليه أن يعارضه بفرضه تحقيق القيم المادية و المطلقة "[15].و قد قادته هذه الفسفة إلى الرؤية التراجدية التي موضوعها الإنسان الذي هو " كائن متناقض يتجاوز دون نهاية الإنسان ، و يجمع فيه كل المتناقضات الملاك و الوحش العظمة و البؤس ، الأمر القطعي و الشر الجذري فلديه طبيعة مزدوجة إلهية و دنيوية جزئية

---

[13]-المرجع نفسه ، ص80.

[14]-المرجع نفسه ،81.

[15]-المرجع السابق،91.

و ضخمة في أن مع و بالنسبة إلى هذه الطبيعة المزدوجة يظهر العالم ذاته متناقضا و مفارقا و هي أن غياب الله عن العالم و عن الطابع الدنيوي و عن بؤس الإنسان يصبح حضورا مستمرا و كليا في عظمته و فرضه للدلال و العدل و الحقيقة"[16].

[16]-المرجع نفسه ،ص110.